المنظومة
ALMANDUMAH

العنوان:	ملامح نقدية عند ابن حزم الأندلسي
المصدر:	حوليات كلية اللغة العربية
الناشر:	كلية اللغة العربية
المؤلف الرئيسي:	يحياوى، رشيد
المجلد/العدد:	ع 7
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1996
الصفحات:	21 - 30
رقم MD:	221412
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	ابن حزم ، علي بن أحمد ، ت. 456هـ، النقد الأدبي، البلاغة العربية، الشعر العربي، الأدب العربي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/221412

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

يحياوى، رشيد. (1996). ملامح نقدية عند ابن حزم الأندلسي.حوليات كلية اللغة العربية، ع 7، 21 - 30. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/221412

إسلوب MLA

يحياوى، رشيد. "ملامح نقدية عند ابن حزم الأندلسي."حوليات كلية اللغة العربيةع 7 (1996): 21 - 30. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/221412

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

ملامح نقدية عند ابن حزم الاندلسي

رشيد يحياوي
كلية الآداب- اكادير

بين ترف القصور ونعيمها وبين قسوة التغرب والسجن ، تقلب ابن حزم بتقلب الاحداث السياسية التي عرفتها الاندلس بقرطبة. وكان في صراحته وحدة ردوده وهجومه ما عرضه لمضايقة أهل عصره من فقهاء وأئمة وحكام. فوصفهم بالجهل والتقليد حتى وصل الامر بهم لابعاده وإحراق كتبه. على أن كل ذلك لم يصده عن نقدهم.

أغلب كتب ابن حزم ورسائله موزع بين معارف وعلوم متعددة. وأهمها تلك التي أطرها مذهبه الظاهري المتميز . وإذا كان ابن حزم جادل في هذه الكتب معارضيه وفعل فيها آراء في الفقه وأصوله ، فإن حديثه عن الادب شعرا وبلاغة ظل تابعا لمعالجته الفقهية الظاهرية لسلوك الناس وممارستهم وثقافتهم في اتصالها بالشريعة لكن هذا المنحى يجب ألا يمنع من إضاءة بعض آراء الرجل في النقد الادبي بقصد إبراز انفتاح نقدنا القديم على مجالات أخرى غير أدبية ومنها الفقه.

وفي رأينا استقطبت نظر ابن حزم النقدي محطتان رئيستان نقف هنا عندهما تباعا ، هما البلاغة والشعر:

أ- البلاغة

يعرف ابن حزم البلاغة تعريفا سياقيا انطلاقا من تلقي المرسل إليه . ويجعل عنصر الفهم هو المعيار الذي يسم الرسالة بميسم البلاغة أو ينزعه منها. أما هذا المرسل إليه أو المتلقي فينقسم إلى صنفين : عامي وخاصي. والمعادلة الصعبة في الرسالة البليغة هي أن تحقق مقصد الافهام للصنفين معا من المرسل إليهما رغم تفاوت مراتبهما في المعرفة . يقول ابن حزم :"البلاغة ما فهمه العامي كفهم الخاصي وكان بلفظ ينتبه له العامي لانه لا عهد له بمثله، وينتبه له الخاصي لانه لا عهد له بمثل نظمه ومعناه ، واستوعب المراد كله ولم يزد فيه ما ليس منه ولا حذف مما يحتاج من ذلك المطلوب شيئا ، وقرب على المخاطب به فهمه، ولوضوحه وتقريبه ما بعد وكثر من المعاني وسهل عليه حفظه لقصره وسهولة ألفاظه. وملاك ذلك الاختصار لمن يفهم، والشرح لمن لا يفهم، وترك التكرار لمن قبل ، وإدمان التكرار لمن لم يقبل أو غفل"(1).

(1)رسالة التقريب لحد المنطق .تحقيق د. إحسان عباس. ضمن رسائل ابن حزم المؤسسة العربية للدراسات والنشر.ط1 بيروت 1983/4.351.وكل رسائل ابن حزم المعتمدة في هذه الدراسة من تحقيق د.إحسان عباس ضمن أربعة أجزاء صادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

والبلاغة في هذا التحديد لا ينظر إليها في ذاتها من حيث لغتها وبناؤها ، بل من حيث وضعها التداولي. حيث يظهر جليا أن النعت البلاغي للرسالة لا يتأكد إلا بنجاح المرسل إليه- وهو هذا الخطيب في الغالب في تحقيق مقصده. وهذه النظرة النفعية للبلاغة ليست جديدة في الارث البلاغي العربي. وقد مثلت المعيار النقدي عند الجاحظ على سبيل المثال . فبخصوص مقصد الافهام نجد في "البيان والتبيين"" مدار الامر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والافهام" .(2)وبخصوص تحديد البلاغة في جمعها بين العامة والخاصة يقول عبد الحميد الكاتب:"البلاغة هي ما رضيته الخاصة وفهمته العامة"(3). كما أن بشرا بن المعتمر قد حدد بما فيه الكفاية دور السياق الخارجي في البلاغة وفي لغتها مؤكدا أولوية الغاية النفعية ، من خلال قوله:"وإنما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال"(4).

وبهذا نجد برغم البعد الزمني ظل نفس الحكم مستمرا عند ابن حزم. وما ذلك إلا لكون البلاغة من شروط تحقيق التواصل. لكن كيف تم النظر إلى الصنفين من المتلقين ضمن هذه العملية التواصلية التي أرجعوا إدارتها وتسييرها للمرسل؟

لقد أكد النقاد والبلاغيون العرب وجوب تحقيق المبلغ غايته بإقناع العامي والخاصي معا بمحتوى الخطاب وصولا إلى المعادلة الصعبة التي حددها بشر بن المعتمر. أقصد إفهام العامة معاني الخاصة. غير أنهم احتفظوا مع ذلك بتفاوت نسبي بين تلقي الطرفين.

بل بين نوعين من التلقي؟ تلقي الخاصي وتلقي العامي.ويظهر أن أساس هذا التمييز راجع إلى مقولة عبد الحميد الكاتب المشار إليها:" البلاغة هي ما رضيته الخاصة وفهمته العامة" والتفاوت بين الطرفين في هذه المقولة جلي. فعبد الحميد الكاتب يميز بين الرضا وبين الفهم. إذ يخص الرضا بالخاصة والفهم بالعامة. ومرد هذا التخصيص كون الخاصة لا تكتفي بطلب الفهم بل تتعداه الى طلب صيغ وطرق تحقيق الفهم. وابن حزم لا يخل بهذا التخصيص . فهو وإن حدد للبليغ غاية صعبة متمثلة في جعل الطرفين متشابهين في الفهم أي" ما فهمه العامي كفهم الخاصي"، فإنه يرتب على مسألة "اللفظ" تمييزا بين الطرفين. فبواسطة اللفظ يثار انتباه المتلقي خاصيا كان أم عاميا .أما بعد مرحلة الاثارة، فيتفاوت كل من المتلقيين، فالعامي ينتبه للفظ لأنه لا عهد له بمثله. أما الخاصي

(2)البيان والتبيين 79/1.
(3) ثمرات الاوراق لابن حجة الحموي ص 335.
(4)البيان والتبيين 136/1.

فينتبه للفظ ليس لانه لا عهد له بمثله- شأن العامي- ولكن لانه لا عهد له بمثل الصياغة اللغوية الجديدة له والممثلة في النظم والمعنى، وبهذا يكون ابن حزم قد احتفظ بدوره بتفاوت رتب الادراك المعرفي بين الملتقيين، جاعلا المتلقي الخاصي لا يكتفي برتبة العامي، بل يتجاوزه الى طلب الصوغ الجمالي.

وابن حزم لا يكتفي بجعل المرسل إليه ودرجة فهمه مقياسا لنجاح القول البليغ فقط، بل يحتفظ به لجعله قاعدة لتقسيم القول البلاغي نفسه.فبحسب نوع المخزون الذهني اللغوي عند المرسل إليه أي المخاطب، وبحسب أساليب البلاغيين في التصرف في هذا المخزون يتوزع الصوغ البليغ عند ابن حزم الى ثلاثة مسالك: الاول يراعي فيه البليغ توظيف لغة مألوفة وهي ما سماه " الالفاظ المعهودة عند العامة". والثاني لا يراعي فيه البليغ الادراك اللغوي المحدود للمخاطب وإنما يفاجئه بما لم يتعود عليه. أو ما سماه "الالفاظ غير المعهودة عند العامة".أما الثالث فمسلك يجمع بين المألوف اللغوي وبين غير المألوف منه. ويظهر من خلال هذا التقسيم الثلاثي أن المتلقي العامي بالذات هو معيار مسالك الصوغ البليغ ولكي تكون هذه المسالك أكثر وضوحا ، يقدم ابن حزم لها أمثلة من الادب العربي. فيمثل الاول ببلاغة عمرو بن بحر الجاحظ، والثاني ببلاغة الحسن البصري وسهل بن هرون، والثالث ببلاغة ابن المقفع في ترجمته لكتاب "كليلة ودمنة". ومن خلال هذه الامثلة يتبين أن البلاغة عند ابن حزم ليست محصورة في الخطابة على حد ما يوحي به حديثه عن مقاصده الخطيب من المخاطب. إذ الاسماء التي أوردها لاقسام البلغاء تجمع بين الجاحظ المؤلف وبين الحسن البصري الخطيب الواعظ وبين سهل بن هرون الكاتب المترسل وبين ابن المقفع المترجم. وهذه الاقسام الثلاثة لا زائد عليها. فلا نجد لباقي البلغاء عند ابن حزم قسما رابعا أو خامسا ولا يمكن لهم عنده إلا أن ينضبطوا لهذه الخانة المعيارية. يقول "ثم بلاغة الناس تحت هذه الطرائق التي ذكرنا"(5).

إن المتلقي عند ابن حزم وفي البلاغة العربية بعامة هو الفيصل في استحسان أو استقباح القول البليغ . ولكن ابن حزم لا يجعل هذه القاعدة خاصة بالعرب وحدهم ، بل يجعلها قاعدة كونية مؤكدا خصوصية اللغات والخصوصيات الثقافية لمتداولي البلاغة . يقول : "البلاغة قد تختلف في اللغات على قدر ما يستحسن أهل كل لغة من مواقع ألفاظها على المعاني التي تتفق في كل لغة "(6).

(5)رسالة التقريب لحد المنطق . ضمن رسائل ابن حزم 352/4

(6)المصدر نفسه 351/4.

وبهـذا الرأي يصبـح القول البليـغ نسبي الادبيـة. وتتحقق أدبيته داخل سياق لغوي ثقافي معين. بحيث يفقد حسنه بانتقاله الى سـيـاق آخـر. إن البليغ عند ابن حـزم ليس دائمـا ذلك الذي يراعي الاساليب والكلمات المتداولة المستعملة، فبإمكانه أن يضيف أي المستعمل كلمات وصياغات جديدة يعود عليهـــا المتلقي . هذه الكلمات يصفهـا بأنهـا "ألفاظ مستغربة" وما أن يتـــم استهلاك هذه الكلمات والاضافـــات مـــن طرف المتلقي حتى تنتقل عند ابن حزم الى المألوف الشـائع الذي لا يملك الحسـن في ذاتـــه.

إن كلمة "لفظ" دائمة الترداد في لغة ابن حزم. فهـو يتـحـدث عن "ألفاظ مـستغربة" وعـــن" اللفظ" الذي يثـيـر به المخـاطب المخـاطب، وعن نوع "اللفظ" الذي يميل إليـه هذا الصنف من البلغـاء أو ذاك. لكن تأكيده على هذه الكلمة لا يدفعنا لنعته باغـفـال الصوغ الذي يرد فيـه اللفظ فيكسبه محاسنه. إذ يجب إدراج تناوله للفظ ضمن مقصد الافهام الذي لا يتحقق إلا بتضافر عناصر لغوية وجمالية وتداولية أخرى .. ناهيك عن كون ابن حزم يذكر "نظم القرآن" وبصرف النظر عن إيمانه بالفكرة الاعـتـزاليـة القـائلة بالصـرفـة ، فإن ذكـره لاصطلاح "نظم " يفسـر كـون اللفظ عنده لا يفي بالغاية دون سياق لغوي. يضاف الى هذا كله أن إشارته الى بلاغات اللغات الاخرى تضمنت قرنه بين الالفاظ وبين مواقعهـــا ومعانيهـــا.

لكن كيف تتحقق إنتاجيـة البـلاغـة في البليغ؟ يذهب ابن حزم الى أنـه لا بد من توفـر استعداد غـريزي في البليغ هو الطبع. ويضاف الى الطبع ضرورة الاحاطة والتوسع في العلوم. أما النصـوص التي من الضروري أن تُكَوِّن وتطعم إنتاجـية البليغ عند ابن حزم فـفي مقدمـتـهـا أربعة: القرآن والحديث والأخبار وكتب الجاحظ ويذكر الجاحظ: يكشف ابن حزم عن ترجيحه للصنف الاول من الاصناف الثـلاثة التي حـددها للبلغـاء، أي الصنف الذي يميل الى اسـتـخدام المتداول المعـهـود من لغة العـــامة مـن النـــاس.

لا نجد عند ابن حزم في كتبه ورسائله تقصيا لاستراتيجيات الصوغ البلاغي مع أنه درس العلوم الفلسفية والمنطقية واشتغل في الفقه وما يقتضيه ويستلزمه من تأويل للنصوص . وقد ذكر في بداية "كـتـاب البـلاغـة" كـلا من أرسطا طـاليس وقـدامـة بن جـعـفـر ومـا كـتـبـاه في الموضوع.ويرجح د. إحسان عباس كون ابن حزم لم يطلع على ما كتبه أرسطو في موضوع البلاغة والشعر. وفسر بذلك كونه"أوجز القول ولم يشف الغلة" (7)وسواء أكان بن حزم اطلع على أرسطو في هذا الموضوع أم لم يطلع فإن المقام نفسه لم يكن يسمـح لابن حزم بالاستفـاضة. ألم يجعل ابن حزم مـن غاياته ارشاد قارئه بعدم الاستغراق في هذه العلوم الادبية والاخذ منها بالنصيب القليل فقط؟

(7)تاريخ النقد الادبي عند العرب ص 485.

على أن ابـن حزم مع ذلك سعى لاستدراج قارئه الى المنطق بحكم أنه احتفظ بالبلاغة والشعر ضمن المنطق في رسالته "التقريب لحد المنطق" مسايرا بذلك الطرح الفلسفي للبلاغة.لكن ابن حزم وان كان نعت البلاغة بأنها "علم " فإنه لم يتحدث عنها من حيث هي كذلك، واكتفى بمناقشة جوانب منها باعتبارها معرفة وظواهر متحققة في الابـداع.

ب-الشـــعر :

ضمن رسالته المذكورة "التقريب لحد المنطق" يعقد ابن حزم بابا مركزا سماه "كتاب الشعر". مما يفيد أنه احتفظ بالشعر ضمن الصناعات المنطقية . لكنه في الوقت نفسه لا يناقش صناعة الشعر هذه من حيث مرتبتها في القياس والبرهنة وطبيعة المقدمات الشعرية مقارنة مع البرهان والجدل والخطابة والسفسطة على حد ما نجد عند النقاد الفلاسفة(8) فابن حزم يقتصر على آراء توجيهية في أخلاقية الشعر وما يستحسن منه أو يستقبح. على أن المنهاج المنطقي يبقى مع ذلك حاضرا في اعتماد ابن حزم مبدأ التقسيم. فمثلما قسم البلاغة الى ثلاثة اقسام، نجده يقسم الشعر الى ثلاثة أقسام كذلك. وبخلاف البلاغة التي اعتمد في تقسيمها على معيار المتلقي العامي، يقسم الشعر استنادا على علاقة الشاعر باللغة والاقسام الثلاثة هي التـاليـــة:

1- شعر الصنـاعـة : ويجعله في "التأليف الجامع للاستعارة والاشارة والتحليق على المعاني والكناية عنها ". ويمثل هذا القسم من الشعر عنده الشعر الغامض لانه تضافرت فيه ثلاثة عناصر بلاغيـة من شأنهـا حجب المعنى . وهي الاستعـارة والاشارة والكناية.والاشارة في تحديد البلاغيين القدماء.وبخاصة الاوائل منهم كالجاحظ تقترن بالايجاز والايماء والتلميح. وهي عند قدامة بن جعفر:"أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء أو لمحة تدل عليها"(9).وابن رشيق وصفها بأنها " من غرائب الشعر"وأدخل فيها اللغز والتعمية والتمثيل والرمز والتلويح والتعريض...

2- شعر الطبع:وهذا القسم من الشعر يبدو أنه عند ابن حزم يخالف الاول. حيث ينفي عن هذا الأخير طابع التكلف ويصف لفظه بأنه عامي واضح المعاني يسهل نثره دون كبير عنـاء.

3- شعر البراعة: هذا القسم يبدو ذا صلة بالقسم الاول. حيث إن البراعة تتحدد عنده في "التصرف في دقيق المعاني وبعيدها، والإكثار في ما لا عهد للناس بالقول فيه، وإصابة التشبيه وتحســين المعنـى"(10).

(8)رشيد يحياوي : الشعرية العربية ص 103.
(9)قدامة بن جعفر . نقد الشعر ص 174.
(10)رسالة التقريب لحد المنطق . ضمن رسائل ابن حزم 355/4.

ولكي تكون هذه الاقسام واضحة عند الراغبين فيها ، يقدم ابن حزم مثالين في كل قسم. فشعر الصناعة يمثله زهير وأبو تمام. وشعر الطبع يمثله جرير وأبو نواس. وشعر البراعة يمثله امرؤ القيس . هذه الخانات الثلاث يصطلح عليها ابن حزم باصطلاح "قسم" والقسم في هذا الاستخدام ليس تصنيفا لانواع الادب أو الشعر. وهو مجرد إجراء لتمييز ثلاث درجات من تلقي الشعر حسب صعوبات وعوائق استهلاك المعنى والتفاعل معه. غير أن ابن حزم فيرسالة "مراتب العلوم" سيوظف اصطلاحا آخر هو اصطلاح "ضرب" وسينعت به مواضيع الشعر واغراضه. وهو بهذا الاصطلاح يقدم تصنيفا آخر للشعر يمثل معيارا أخلاقيا أساسه ما يجب تداوله من الشعر و ما يجب ان يستبعد .

وتتحدد أضرب الشعر عند ابن حزم في هذه الرسالة في سبعة هي:

1- ضرب الحكمة والخير .
2- ضرب الاغزال والرقيق .
3 - ضرب التصعلك وذكر الحروب.
4 - ضرب التغرب.
5- ضرب الهجاء .
6 - ضرب المديح.
7- ضرب الرثاء.(11)

وابن حزم بهذه القائمة من"ضروب" الشعر يكون قد أضاف الى التصنيفات الشعرية العربية شبكة واضحة في مبدئها الاخلاقي. وفي الوقت نفسه تعطي نفس الاهمية لموضوعات لم تجد قبل ابن حزم مكانها الى جانب الاغراض والموضوعات المعروفة. وأقصد شعر التغرب والتصعلك وذكر الحروب.

أما الانتاجية الشعرية عند ابن حزم فترجع الى الغريزة . إذ الشاعر عنده شاعربالجبلة. فهو كالبليغ يحتاج أن يكون مطبوعا أولا . ثم يقوي طاقته الانتاجية بقراءة الاشعار وتدبرها . يقول ابن حزم : "وكون المرء شاعرا ليس مكتسبا لكنها جبلة. إلا أنه يقوى صاحبها بالتوسع في قراءة الاشعار وتدبرها (12).

جـ-الغايات والظاهرية :

تتميز آراء ابن حزم في نقده للبلاغة والشعر بما يلي :

1- الايجاز الشديد :لان هدف ابن حزم لم يكن هو تزويد قارئه بتفصيلات وتفريعات البلاغة والشعر، وإنما إرشاده للقليل المفيد. إذ لابد أن ننظر لآراء ابن حزم في ضوء نوع المخاطب الذي كان في هذه الحالة طالب علم دين وشريعة وليس طالب علم أدب. ولذلك فهذا الايجاز ليس

(11)رسالة مراتب العلوم . ضمن رسائل ابن حزم 4/(67-68).
(12)رسالة التقريب لحد المنطق. ضمن المصدر المذكور 4/356.

راجعا لقصور في معرفة ابن حزم بالنقد والشعر. إذ أن ابن حزم نفسه كان شاعرا وراويا للشعر في الوقت نفسه. بدليل قوله:"فقد علم من داخلنا أو بلغه أمرنا كيف توسعنا في رواية الاشعار وكيف تمكنا من الاشراف على معانيها، وكيف وقوفنا على أفانين الشعر ومحاسنه ومعانيه وأقسامه، وكيف قوتنا على صناعته وكيف تأتى مقصده ومقطوعه لنا، وكيف سهولة نظمه...علينا في الاطالة فيه والتقصير"(13).

2- غاية تعليمية: هذه الغاية لاتخص حديثه عن الشعر والبلاغة فقط بل كذلك اللغة والنحو وأحكام الشريعة الاسلامية . وبخاصة في رسائله التي كتبها ردا عن رسائل أو أسئلة يطلب أصحابها نصائح ابن حزم . تبدأ رسالته "رسالة التلخيص لوجوه التخليص" على سبيل المثال كالآتي :"وسألتم -رحمنا الله وإياكم - عمن طلب العلم ، وهل الآداب من العلم. تعنون : النحو واللغة والشعر، وعن طلب الاشتغال بروايات القراء السبعة المشهورين على اختلاف ألفاظها وأحكامها، وعن قراءة الحديث، وعن مسائل ، فنعم- وفقنا الله وإياكم لما يرضيه -"(14).

والصيغ التعليمية تظهر في كون الخطاب توجهه ذات ناصحة لذات منصوحة. حيث يطلب من الثانية تطبيق ما ترشد لتطبيقه وتجنب ما تفصح بتجنبه. كقوله:"فإذا بلغ المرء من النحو واللغة الى الحد الذي ذكرنا فلينتقل الى علم العدد. فليحكم الضرب والقسم والجمع والطرح والتسمية وليأخذ طرفا من المساحة، وليشرف على الارثماطيقي- وهو علم طبيعة العدد- وليقرأ كتاب أقليدس قراءة متفهم...(15).

ألا تكون هذه الغاية التعليمية هي التي وجهت ابن حزم إذن الى الاختصار والايجاز في آرائه عن العلوم المنطقية والبحتة والادبية؟ ثم إن هذه الصيغة تسهل على القارىء تتبع وحفظ النصيحة . ولا شك أن اختيار ابن حزم لصوغ لغوي بسيط وواضح خال من تعقيد الفلاسفة والمناطقة، وجهته هذه الغاية التعليمية أيضا.

3- غاية أخلاقية :تمثلت هذه الغاية في إصدار ابن حزم لاحكام قيمة كثيرة في حق الشعر وصلت الى حد دعوته لتجنب العديد من أغراضه .. فشعر الغزل يسبب- في رأيه- الفتنة والصبابة وتبذير المال وقد يفضي للهلاك وشعر التصعلك وذكر الحروب كشعر عنترة وعروة بن الورد يهيج النفوس ويثير الفتن ويسبب الظلم وسفك الدماء. وشعر التغرب يغري المرء بالتنقل والتغرب ويربي

(13) رسالة التقريب لحد المنطق. ضمن رسائل ابن حزم 69/4.
(14)رسالة التلخيص لوجوه التخليص. ضمن رسائل ابن حزم 161:3.
(15)رسائل ابن حزم 69/4.

فيه ما قد لا يستطيع التخلص منه. وشعر الهجاء يسبب لصاحبه الدمار في الدنيا والآخرة لتعرضه بالعورات والحرمات .حتى شعر المدح والرثاء لم يسلم من أحكام ابن حزم هذه. فهو يحتفظ بهما في"جمهوريته" من جهة ما يتضمنانه من ذكر فضائل الممدوح والميت، ولكنه يعيبهما لكونهما كذبا.

صفة الكذب الشعري لا تطال عند ابن حزم المدح والرثاء فقط. فهي صفة الشعر كله. إن الشاعر في رأي ابن حزم إما أن يكذب لكي يكون شاعرا وإما أن يكون صادقا فتسقط عنه صفة الشعرية ويصبح كلامه مجرد تسجيل للصفات الحقيقية والطبيعية للاشياء والكائنات. ويقدم المثال التالي لمن أراد أن يكون شعره صادقا :

الليل ليل والنهار نهار	والبغل بغل والحمار حمار
والديك ديك والحمامة مثله	وكلاهما طير له منقار

ولان كلاما كهذا رغم صدقه في تقرير الصفات ليس شعرا، فإن ابن حزم نفسه يؤكد أن من يقول كلاما كهذا، يصبح مسخرة عند الناس.إذن لا يمكن أن نتصور شعرا خارج دائرة الكذب. ونفهم من ابن حزم أن الكذب عنده يتحدد في اختلافه مع ضدين: الاول هو الصدق الأخلاقي. أي أن الشاعر لا يقول ما يفعل حقيقة أو ما يفعله غيره . والثاني هو القول التقريري أي أن الشاعر يقدم قولا مجازيا متحققا بالغلو والاغراق في المعاني المستعارة التي تعتبر ممتنعة أو مستحيلة حين تعرض على قواعد المقبول المنطقي . وهذا الاختيار الثاني رغم كونه يجعل الشعر كذبا فإنه من الناحية الشعرية هو الوحيد الذي يجعل الشعر عند ابن حزم يحسن ويملح على حد تعبيره (16).

إذن أي شعر يرضى عنه ابن حزم ويسمح بالتعاطي له رواية وخلقا؟ في رسالته عن مراتب العلوم يخص من بين ما يجب أن يروى ما سماه "الاشعار التي فيها الحكم والخير" ومن شعائرها عنده حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . لما يراه في هذه الاشعار من تنبيه للنفس لكنه في "رسالة التلخيص لوجوه التخليص" وإن ذكر نفس الشعراء، فإنه يضيف" ما حق من مختار أشعار الجاهلين ومختار أشعار المسلمين، غير مستكثر من ذلك ، ولكن بقدر ما يتدرب في فهم معاني لغة العرب ومخارج كلامهم"(17).وبهذا يضيق ابن حزم الغايات من رواية الشعر في مجرد غاية أخلاقية لتنبيه النفس أو غاية تعليمية ممثلة في الاستعانة بالشعر على التدرب على اللغة ومعانيها. ولهذا السبب يتسائل إحسان عباس عما إذا كان ابن حزم ناقدا بالفعل في موقفه هذا.

(16) رسائل ابن حزم 355/4.
(17)المصدر السابق 164/3.

ويؤثر أن يجعله أقرب الى المصطلح الاجتماعي ذي النزعة الافلاطونية الذي يتحدث عن الفرد الصالح في المجتمع . ولعله أن يكون قد تأثر بمسكويه أو بأفلاطون مباشرة فطرد أكثر ضروب الشعر من منهجه التعليمي. إن الهجوم على الشعر من حيث أثره السيء في نفسية الافراد والجماعات، سيظل دائما ملاذ المتبررين ولكنا لا نجد في تاريخ النقد الادبي عند العرب موقفا واضحا من هذه القضية وضوح موقف ابن حزم وصراحته وتناوله المشكلة بالتفصيل"(18).

4- غـــايـة دينيـــة : يرى ابن حزم أن الادب بعامة لا يجب أن يكون سوى مساعد لطلبه على التقرب من كتاب الله وفهمه والاحاطة بمعانيه. وقاعدة ابن حزم في هذا المنحى هي قوله: "أجل العلوم ما قربك من خالقك تعالى، وما أعانك على الوصول الى رضاه "(19) وابن حزم يقسم في هذا الاطار العلوم الى قسمين : علوم الاوائل ممثلة بخاصة في المنطق والفلسفة والطب والمساحة والهيئة . وعلوم الدين المنبثقة من النبوة. وإذا كان لا ينكر أهمية الاولى فإنه يحصرها في المنافع الدنيوية فيما تمتاز العلوم الدينية بالمنفعة الدنيوية والاخروية معا(20). والشعر عنده مثل علم العدد والهيئة (الافلاك) والمساحة والطب، مما يخدم الانسان في دنياه فقط. قال ابن حزم في" رسالة في مداواة النفوس"منبها من أعجب بعلمه: "ثم لعل علمك الذي تعجب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة التي لا كبيرخصله فيها كالشعر وما جرى مجراه ، فانظر حينئذ الى من علمه أجل من علمك في مراتب الدنيا والآخرة، فتهون نفسك عليك"(21) .

إن هذه الغاية الدينية ستملي على ابن حزم تقسيما آخر للشعر من حيث علاقة المتعاطي له معه. وتأتي القسمة في هذه الحالة ثلاثية كذلك مما يدعو للتأكيد على ميل ابن حزم لهذا النوع من التقسيم أما أقسام التعاطي مع الشعر فهي:

1-أن يجعل الانسان الشعر علمه الوحيد . وهذا حرام في رأيه.

2-أن يستكثر الانسان من الشعر. وهذا ليس حراما ولكنه ليس مستحبا ولابد لصاحبه أن يقوي نصيبه من الدين على كل حـال.

3- أن يكتفي الانسان منه بنصيب فقط. وهذا مستحب عند ابن حزم ومحضوض عليه.

(18) تاريخ النقد الادبي عند العرب ص 488.
(19) رسالة في مداواة النفوس . ضمن رسائل ابن حزم 344/1.
(20)انظر رأيه هذا في رسالته :"رسالة التوقيف على شرع النجاة باختصار الطريق ضمن : رسائل ابن حزم 3/(129-140).
(21)رسائل ابن حزم 389/1).

شريطة أن يقيد النصيب المذكور بما سبق ذكره وأن تجعل الغـاية منه دينية ولغويـة.

مع أن ابن حزم توزع في معتقداته الفقهية على عدة مذاهب فإن ما عرف به فقهيا وكلاميا هو المذهب الظاهري. وإذا كان هذا المذهب يمكن تلمسه جليا في الآراء الفقهية والفلسفية و الجدالية عند ابن حزم، فهل نجد له تجليا في نقده الشعري والبلاغي كذلك؟

5-ظـاهراتية النقـد: يبدو لنا أن ابن حزم بقي متأثرا بمنهاجه الاصولي الظاهري حتى في آراءه النقدية حول الشعر والبلاغة . ونحصر أهم جوانب ظاهرية نقده في عنصرين:

أ- ترجيح النصوص القديمة للشعر والبلاغة دون نصوص المحدثين من معاصريه وجعله القدماء قدوة يجب احتذاؤها. أما المحدثون فلا يختلفون عنده-فيما يبدو - عن العامة في ميلهم للتقليد . يقول ابن حزم:"أما المتأخرون فإنا نقول : إنهم مبعدون عن البلاغة ومقربون من الصلف والتزيد حاشا الحاقي وبديع الزمان فهما مائلان نحو طريقة سهل بن هرون"(22).

ب- الاستناد الى القرآن والسنة دون آراء النقاد والبلاغيين. وما ذلك إلا لان المذهب الظاهري يجعل قاعدته الادلة القطعية مأخوذة في ظاهرها دون تأويل لا يدعمه دليل قطعي. أما هذه الادلة القطعية فمتمثلة أساسا في القرآن والسنة الصحيحة والاجماع الذي لم يقع فيه اختلاف . أما القياس فمستبعد عند ابن حزم. ولهذا السبب يورد ابن حزم نصوصا من القرآن والسنة دون مناقشتها أو تأويلها . ومن أمثلة هذا الموقف ما قاله في صلة الشعر بالكذب: "وقال المتقدمون: الشعر كذب. ولهذا منعه الله نبيه صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى:" وما علمناه الشعر وما ينبغي له (يس: 69) وأخبر تعالى أنهم يقولون ما لا يفعلون . ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاكثار منه"(23).

لقد ترتب على موقف ابن حزم هذا أمران : يتمثل الاول في إغفال باقي المهام والغايات التي يقوم بها الادب وضمنه الشعر في خدمة اللغة وتطويرها، وتطوير المعرفة والادراك الجمالي. ويتمثل الثاني في عدم الانتباه الى الاضافات الجديدة للادباء وما تحتاجه من وقفات نقدية متأملة ووازنة قد تفضي الى استثمار هذه الاضافات حتى في ما يخدم الدين نفسه . وابن حزم لم يكن جاهلا بكل هذا . لقد كان شاعرا ناهيك عن كونه وضع كتابه "طوق الحمامة " في موضوع الحب وهو من الموضوعات ذات الحساسية الاجتماعية والدينية. ويظهر أن ابن حزم ظل يعاني داخليا من ذات يتنازعها شخصان:الاول اديب وشاعر والثاني فقيه منطقي الى أن حسم ابن حزم في هذا الصراع باختياره الشخص الثاني مضحيا إذن بالاديب والشاعر الذي كان قابعا بالتأكيد في سجن خفي داخل نفسه.

(22) رسائل ابن حزم 352/4.
(23)المصدر السابق 354/4.